مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١: ١٠–١٤؛ ٢: ١–٣)

أنتَ يا ربُّ في البدءِ
أسَّستَ الأرضَ والسمواتُ
هي صُنعُ يدَيْكَ* وهي
تزولُ وأنتَ تبقى وكلُّها
تَبلى كالثوبِ* وتَطويها
كالرداءِ فتتغيَّرُ وأنتَ أنتَ
وسنوكَ لن تَفنى* ولِمَنْ من
الملائكةِ قالَ قطُّ اجلِسْ عن
يميني حتى أجعلَ أعداءَكَ
موطِئاً لقدَمَيْكَ* أليسوا
جميعُهم أرواحاً خادِمةً
تُرْسَلُ للخدمةِ من أجلِ
الذينَ سيرثونَ الخلاص*
فلذلك يجبُ علينا أن
نُصغيَ إلى ما سمِعناهُ
إصغاءً أشدَّ لئلاَّ يسرَبَ من
أذهاننا* فإنَّها إن كانتِ
الكلِمةُ التي نُطِقَ بها على
ألسِنةِ ملائكةٍ قد ثبَتت وكلُّ
تعدٍّ ومعصيَةٍ نالَ جزاءً
عدلاً* فكيفَ نُفلِتُ نحنُ إن
أهمَلنا خلاصاً عظيماً كهذا

القديس غريغوريوس بالاماس

يشكّل تعليم آباء الكنيسة القديسين مع طقوس العبادة المسيحية في الليتورجية الأرثوذكسية الإستمرار الحيوي لدعوة الإنجيل وعيش رسالة الكتاب المقدس. وما حضور الآباء القديسين في الكنيسة عبر العصور سوى التعبير الأجلى عن حضور الروح الإلهي وفعله في جسد المسيح في كل الأزمنة.

أما تعييد الكنيسة الأرثوذكسية في الأحد الثاني من الصوم الأربعيني المقدس لذكرى القديس غريغوريوس بالاماس، فهو خير تأكيد على المكانة المتمايزة لهذا الأب، وعلى الدور الهام الذي لعبه في إيضاح تعليم الآباء الذين سبقوه، وفي إغناء تقليد الكنيسة.

إن تعليم قديسنا يتّسم بحيّوية الشهادة للإنجيل. كلامه في تفسير الإنجيل وخبرة الآباء المعاشة إنما يقوم على الخبرة الروحية التي يقتنيها الإنسان حين يتقدّم في جهاد الصلاة والتسليم الكامل لله. عاش هذا الأب القديس سيرة شريفة مقدّسة في النسك والهدوء والصلاة والتنقية فأضحى إناءً مختاراً للروح القدس، ومصباحاً لنور الثالوث القدوس المحيي.

نشأ في البلاط الإمبراطوري في القسطنطينية تحت كنف الإمبراطور أندرونيكس الثاني باليولوغوس، إذ كان والده أحد مستشاريه المقرّبين. إعتنى الملك بتربيته وتعليمه، لكن غريغوريوس آثر خدمة الملك السماوي. فغادر العاصمة في سن التاسعة عشرة ليتتلمذ على أحد النساك المختبرين في الجبل المقدّس آثوس. أحبّ السكينة فقضى أعواماً غير قليلة في الصمت والهدوء والسهر والصلاة والنسك. تتلمذ على أكثر من شيخ من آباء الجبل المقدس قبل أن تضطّره غزوات القراصنة إلى مغادرة الجبل المقدس والإستقرار في مناسك منطقة فيريا المتاخمة لمدينة تسالونيكي.

لم يسعَ يوماً لأن يكون كاتباً أو معلّماً. ولكن ظهور من تحدّوا تقليد الكنيسة وخبرة الآباء القديسين الروحيّة حداه إلى الدفاع عن الإيمان القويم. فكان أن دوّن بعض المؤلفات في العقيدة والتعليم الروحي مع غير قليل من الرسائل التي يوضح فيها

العدد ٩/ ٢٠١٠
الأحد ٢٨ شباط
الأحد الثاني من الصوم
(أحد القديس غريغوريوس بالاماس)
تذكار أبينا البار
باسيليوس المعترف الذي نسك
القديس بروكوبيوس
اللحن الخامس
إنجيل السَحَر الخامس

قد نُطِقَ به على لسان الربِّ أولاً ثمَّ ثبَّتَهُ لنا الذينَ سمِعوه.

الإنجيل

(مرقس ٢: ١-١٢)

في ذلك الزمان دخل يسوعُ كَفْرَناحومَ وسُمع أنَّه في بيتٍ* فللوقت اجتمعَ كثيرون حتى إنَّه لم يعُدْ موضعٌ ولا ما حولَ الباب يَسَعُ وكان يخاطبهم بالكلمة* فأتوا إليهِ بمخلَّعٍ يحمِلُهُ أربعةٌ* وإذ لم يقدروا أن يقتربوا إليه لسبب الجمع كشفوا السقفَ حيث كان. وبعد ما نَقَبوهُ دلَّوا السريرَ الذي كان المخلَّعُ مضطجعاً عليهِ* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك* وكان قومٌ مِنَ الكتبةِ جالسين هناك يفكّرون في قلوبِهِمْ ما بالُ هذا يتكلَّمُ هكذا بالتجديف. مَن يقدِر أنْ يغفِرَ الخطايا إلاَّ اللهُ وحدَهُ* فللوقت علمَ يسوعُ بروحِه أنَّهم يفكِّرون هكذا في أنفسِهم فقال لهم لماذا تفكِّرون بهذا في قلوبكم*

تعليم آباء الكنيسة عن النعمة الإلهية وعن نور المسيح غير المخلوق.

يوضح قديسنا أن اتحاد الإنسان بنعمة الروح القدس هو أساس خلاصه وقداسته. وهذا الإتحاد، الذي يؤدّي إلى تألّه الشخص البشري، هو وحده يهب الإنسان معنًى حقيقيًا لوجوده على الأرض، ويحقق القصد الإلهي من خلقه. فالإنسان لا يحيا «بالخبز وحده» بل بنعمة الله و«بكل كلمة تخرج من فم الله». يحيا إلهيًّا فيكون ابناً لله بالتبني.

أما نور المسيح الذي ظهر لتلاميذه على جبل ثابور، فإن القديس يفسّره بأنه ضياء الثالوث القدوس الأزلي. هذا النور الإلهي كان من قبل أن يكون العالم. وقد حضر إلى الأرض لمّا تجسّد المسيح الكلمة، فسكن في العنصرة في قلوب المؤمنين، به يستنير المسيحيون في سرّ المعمودية وعليهم أن يسيروا بهديه في حياتهم لكيما يقوّم سبلهم ويقدّس وجودهم، حتى يسكنوا فيه من بعد الممات، إلى أن «يأتي المسيح بمجد ليدين الأحياء والأموات»، «حينئذٍ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (متى ١٣: ٤٣) و«يكون الله الكل في الكل» (١ كور ١٥: ٢٨).

عام ١٣٤٧ انتُخب هذا الأب القديس متروبوليتاً على تسالونيكي التي كانت بمثابة عاصمة ثانية لإمبراطورية الروم. كان رئيس كهنة عجائبياً. دبّر أبرشيته بحكمة وتفانٍ في ظروف في غاية الصعوبة، باذلاً نفسه عن الخراف. وقد ترك لنا عدداً من العظات هي بمثابة الدرر الثمينة في الرعاية والخطابة والتعليم والتكلّم باللاهوت. دافع عن إيمان الكنيسة في المجامع المحليّة المنعقدة في القسطنطينية ما بين ١٣٤٣ و١٣٥١.

رقد القديس غريغوريوس بالاماس بسلام العام ١٣٥٩ بعد أن زيّن كنيسة المسيح بسيرته المقدسة وفضيلته الكاملة ورئاسة كهنوته، وبعد أن جمع تقليد آباء الكنيسة وأوضحه في المرحلة العصيبة السابقة لسقوط القسطنطينية وزوال امبراطورية الروم.

مغفورة لك خطاياك

يقول السيد في إنجيل متى: «ملكوتُ السموات يُغصَبُ والغاصِبونَ يختطِفونَه» (متى ١١: ١٢). هذا يفترض الجهاد وأن يكون المجاهد من الأشدّاء وأن يكون عنيفاً تجاه ما يمنعه من بلوغ الملكوت. بينما في إنجيل اليوم يبدو وكأن الرب يمنح الملكوت مجاناً. الرسول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية يقول: «إن الذين هم للمسيح قد صَلَبوا الجسدَ مع الأهواءِ والشهواتِ» (غلا ٥:٢٤). والمسيح اليوم يغفر الخطيئة ويرمم الجسد المخلّع مانحاً إياه القوة والحرية. فهل من تناقض بين الموقفين أم أن التناقض ناتج عن سوء فهمنا للأمرين معاً؟

إن آدم بالسقوط ألغى بساطة الصورة الأولى للإنسان، فهدم سلامه الداخلي وهدوءه النفسي وقدرته على المحبة الصادقة واستبدل كل هذه بالتمزق الداخلي الذي تسببه أفكاره وتخيلاته وتصرفاته. صار الإنسان بالخطيئة عبداً للأهواء والمرض والضعف، متذوقاً مرارة الندم والحزن. صارت تصرفات الإنسان معاكسة لمنفعته،

ما الأيسرُ أن يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياك أم أنْ يُقالَ قُمْ واحملِْ سريرَك وامشِ* ولكن لكي تعلَموا أنَّ ابنَ البشر لهُ سلطانٌ على الأرض أن يغفرَ الخطايا قال للمخلَّع* لك أقول قُمْ واحملِْ سريرَك واذهب إلى بيتك* فقام للوقتِ وحملَ سريرَهُ وخرجَ أمامَ الجميعِ حتى دهِشَ كلُّهم ومجَّدوا اللهَ قائلين ما رأينا مثلَ هذا قطُّ.

تأمل

ان المخلّع هنا حاضر وبكامل عقله. جسده فقط كان مشلولاً. لذلك أعتقد وأرجّح ان إيمان المريض نفسه جعل الآخرين يثقون بالرب ومن ضمنهم أولئك الذين كانوا حاملين المريض وآتين به بحماسة ليقتربوا من الرب. طبعاً لم يفعلوا ذلك رغماً عنهم، ولم يغيّر ثقل المشلول فكرهم، بل على العكس تجاوزوا العقبات كلّها. أمّا الفريسيون فقد ابتعدوا عن الربّ بسبب ركضهم وراء المجد الذي من الناس. لذلك كان يقول لهم: «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من

صار يميل نحو ما هو ضارّ به جسداً ونفساً، مزيّناً لنفسه ما يضر به على أنه ممتع وجيّد وطيّب. صار الإنسان عدوّاً لذاته وصار شفاؤه يتطلّب منه شدّة وقسوة يمارسها على نفسه، كما يتطلّب منه جهاداً ليشفي نفسه المخلّعة بأنواع الخطايا وهو كسيح لا قوّة له ولا عزم. صار المطلوب منه أن يختطف ذاته الساقطة ليعيدها إلى ملكوت جمالها الأول.

هذه هي الخطيئة بالنسبة للإنسان. بالخطيئة يسيء الإنسان إلى الإنسانية، أكانت الإساءة إلى إنسانيته أو إلى إنسانية شخص آخر. قد يقول البعض إن كانت خطيئتي لا تؤذي أحداً فهي بحسب هذا المنطق ليست خطيئة. هذا غير صحيح لأن الخطيئة تحجب عني النعمة وتخلّع نفسي وتقعدها، خطيئتي في كل حال تؤذي نفسي.

قلنا إن محاربة الخطيئة تتطلب جهاداً، لا بل شدّة نمارسها على أنفسنا، وهذه أمور صعبة لا يُقبل عليها الإنسان بسهولة وطواعية، لأنها تتسبب له بعذاب، لا بل بحرب داخلية، وإن كانت لا منظورة، إلا أنها عنيفة وصعبة، فيها مواجهة قاسية مع الذات لا مكان فيها للإختباء من أمام حقائق مرّة علينا مواجهتها لنشفى من عجزنا الروحي.

لا بد من المسارعة إلى القول إن ممارسة هذه الحرب الروحية تتطلب وعياً حتى لا تتحوّل إلى كُره للذات ينقلب مرضاً نفسياً يغطي الحياة بسوداوية مؤذية. ذلك أن الجهاد الروحي الصحيح يولّد فرحاً متى بدأ يُؤتي ثماره. وليس فرح جهاد الإنسان الروحي مشابهاً لأي فرح آخر ناتج عن انتصار عادي، إنما هو الفرح بشعورنا أننا أبناء الله وأننا محبوبون منه وأن محبته لنا هي الحياة بملئها. هذا الفرح يزيل عنا هموم الدنيا وشجونها لأننا أودعنا ذواتنا وكل حياتنا المسيح الإله. هذا الفرح يفتح لنا أبواب الفردوس لأننا بالجهاد حصلنا على النِعَم التي تفوق كل عقل ويعجز عنها أي وصف.

الخطيئة لا تسيء إلى الله، بمعنى أنها لا تؤذيه. إنه أعظم من أن تؤذيه أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا. وفي هذه الحال نسأل لماذا يحسب الله لنا خطايانا إن كانت لا تسيء إليه؟ خطيئة الإنسان بالنسبة إلى الله هي أن نرفض نعمته التي هي تعبير عن محبته العظيمة وتحننه الذي لا يوصف. خطيئتنا لا تسيء إلى الله ولكنها تعنيه لأنها تسيء إلى خليقته التي اقتناها بدمه الكريم على الصليب. والله لا يشاء موت الخاطئ لأنه خلقنا لنكون مشاركين له في الحياة الأبدية. هو يريدنا أن ننعم بنِعَمه الكثيرة.

الخطيئة بعمقها هي عندما نكون خارج النعمة الإلهية. والله الجزيل التحنن والكثير المراحم لا يحجب نعمته عمّن يطلبونها بقلب نقيّ. ما الأيسر أن يُقال مغفورة لك خطاياك أم قُم واحمل سريرك وامشي؟ فلنسأل أنفسنا: هل نحن نطلب هذه النعمة بالذات أم أننا نسعى وراء ما نحسبه نعمة بمنظارنا البشريّ؟ هل نحن أغنياء بالله وبِنِعَمه أم أننا مستغنون عنه بغنًى دنيوي آخر يفسده السوس والصدأ ويسرقه السارقون؟

مَن عرف طعم النعمة، من تسنى له أن يتذوق حلاوتها ولو مرة واحدة في حياته، يعرف قيمتها ويسعى في طلبها تاركاً وراءه كل

الإلـه الـواحـد لسـتـم تطلبونه» (يو ٥: ٤٤).

نرى آخرين تمنعهم من المجيء إلى الرب حقولهم أو زواجهم أو اهتمامات معيشية أخرى. كل ذلك لم يرد على فكر المريض بسبب شلل جسده. لذلك بالنسبة لبعض الخطأة هناك حالات يكون فيها المرض أنفع من الصحة فيضحي المرض سبباً لخلاصهم. المرض مثلاً يليّن الأهواء الطبيعية الجانحة إلى الشر، يداوي الخطيئة عن طريق الضعف الجسدي فيجعل المريض قابلاً أولاً شفاء النفس قبل الشفاء الجسدي خصوصاً عندما يؤمن بأن الشفاء يأتي من الله. هذا يجعله يصبر بشجاعة أكبر على المرض ويلجأ إلى الله ويقوم بأعمال على قدر استطاعته طالباً غفران خطاياه.

هذا ما عبّر عنه المشلول عن طريق أعماله وعلى قدر استطاعته. والرب بأقواله وأعماله أكّد هذا الأمر نفسه بالرغم من تجديف الفريسيين وتذمّرهم عليه لأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا كل ذلك.

القديس غريغوريوس بالاماس

الأمور الدنيوية، فاتحاً قلبه ليستقبل ملك المجد. هذا المخلّع المطروح على سرير الراحة الدنيوية فَهِم أن حياته وراحته الحقة هي بنعمة المصالحة مع الله الذي أعاد إلى جسده قوة الحياة ليحمل إلى العالم ثمار الروح شهادةً لمجد الله.

ثمار المناولة الإلهية

ان الزيتونة البرّية إذا طعّمت بطعم صالح تتحوّل وتصبح زيتونة مثمرة وهذا ما يحدث تماماً معنا نحن المسيحيين. عندما نكون وحدنا نبقى بدون ثمر روحي ولكن عندما نرتبط بالمسيح ونتناول جسده ودمه ننال سريعاً عظم الخيرات، غفران الخطايا وملكوت السموات، أي ثمار التبرير التي يعطيها المسيح. نتناول جسد المسيح الذي يشكّل ضمانة لتحقيق الغلبات الروحية والفتوحات السامية.

من الواضح ان حياتنا بعد المناولة الإلهية يجب أن تصير مسيحية النوع، أي على شكل المسيح. «أنتم جسد المسيح وأعضاءٌ من أعضائه» (١ كور ١٢: ٢٧). ان كلمات الرسول تنطبق بالأكثر على أرواحنا وتنطبق على جسدنا، ويشير الرسول بولس عندما يقول: «الملتصق بالرب هو بالروح» (١ كور ٦: ١٧) إلى الرباط الذي يربط نفسنا بالمسيح. ويشدّد كثيراً على هذا الرباط. لذلك لم يأخذ المسيح جسداً فحسب بل روحاً وعقلاً وإرادة وكل ما هو بشري ما عدا الخطيئة حتى يتحد كلياً مع وجودنا ويربط كل ما لنا بما له. مع الخطأة فقط لا يتحد المسيح لأنه خلو من كل خطيئة ولا علاقة له بها لأنه بريء من الخطأ. لقد قبل السيد كإله رحيم كل عناصر حياتنا ما عدا الخطيئة وتنازل ليتحد بنا بتنازله الذي لا يحد. فالمسيح الإله الحقيقي نزل إلى الأرض ليرفعنا إلى السماء. صار إنساناً ليرفع الإنسان إلى الله ويبقي كإنسان خلواً من كل خطيئة وصار الغالب الأزلي، وأعتق الطبيعة البشرية من الخطيئة والعار، وكمخلص أعتق الإنسان من جريرة الخطايا وصالحه مع الله. لم يكن بإمكاننا أن نصعد إلى السماء وأن ننال هذه المواهب الكبرى ولذلك نزل المخلّص إلى الأرض فأخذ ما لنا وأعطانا ما لا ثمن له من خاصته. أعطانا جسده ودمه. وبهذه الطريقة نستقبل الله ونقبله في نفوسنا.

من الواضح ان المسيح يدخل ذاته إلى داخلنا بالمناولة المقدسة ويتحد معنا ويحوّل وجودنا وفقاً لحياته الخاصة. إذا سقطت قطرة من الماء في محيط من العبير فالقطرة تندمج في المحيط وتتحد به وتأخذ كل خواصه وتتحوّل إلى عبير كالمحيط الذي سقطت فيه. فالمسيح هو الأريج الروحي وله كل القوة ليحوّل المؤمنين الذين يدخلهم بواسطة المناولة المقدسة إلى أناس ليست حياتهم معطرة فحسب بل إلى أناس يحملون كل عطر المسيح، «نحن عطر المسيح الطيب لله... ولأولئك نفخة حياة للحياة» (٢ كور ٢: ١٥-١٦).

القديس نقولا كاباسيلاس

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb